كمال الدين
وتمام النعمة
للشيخ الجليل الأقدم
الصدوق
ابي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي
المتوفى ٣٨١ هـ
منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

كمال الدين وتمام النعمة

للشيخ الجليل الأقدم

الصدوق

أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي

المتوفى سنة ٣٨١

صححه وقدم له وعلق عليه

العلامة الشيخ حسين الأعلمي

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

ص.ب ٧١٢٠

لدينه وسديد رأيه واستقامة طريقته ، وهو الشيخ نجم الدِّين أبو سعيد محمّد بن الحسن بن محمّد بن أحمد بن الصّلت القمّيّ ـ أدام الله توفيقه ـ وكان أبي يروي عن جدِّه محمّد بن أحمد بن الصّلت ـ قدَّس الله روحه ـ ويصف علمه وعمله وزهده وفضله وعبادته ، وكان أحمد بن محمّد بن عيسى في فضله وجلالته يروي عن أبي طالب عبد الله بن الصّلت القمّيّ ـ رضي الله عنه ـ وبقي حتّى لقيه محمّد بن الحسن الصفّار وروى عنه ، فلمّا أظفرني الله تعالى ذكره بهذا الشيخ الّذي هو من أهل هذا البيت الرَّفيع شكرت الله تعالى ذكره على ما يسرّ لي من لقائه وأكرمني من إخائه وحباني به من ودِّه وصفائه ، فبينا هو يحدِّثني ذات يوم إذ ذكر لي عن رجل قد لقيه ببخارى من كبار الفلاسفة والمنطقيين كلاماً في القائم عليه السلام قد حيرّه وشكّكه في أمره لطول غيبته وانقطاع أخباره ، فذكرت له فصولاً في إثبات كونه عليه السلام ورويت له أخباراً في غيبته عن النبيِّ والأئمّة عليهم السلام سكنت إليها نفسه ، وزال بها عن قلبه ما كان دخل عليه من الشكِّ والارتياب والشبهة ، وتلقّى ما سمعه من الآثار الصحيحة بالسّمع والطاعة والقبول والتسليم ، وسألني أن أصنّف [له] في هذا المعنى كتاباً ، فأجبته إلى ملتمسه ووعدته جمع ما ابتغى إذا سهّل الله لي العود إلى مستقرِّي ووطني بالرَّيِّ .

فبينا أنا ذات ليلة أفكّر فيما خلَّفتُ ورائي من أهل وولد وإخوان ونعمة إذ غلبني النوم فرأيت كأنّي بمكّة أطوف حول بيت الله الحرام وأنا في الشوط السّابع عند الحجر الأسود أستلمه وأقبّله ، وأقول : «أمانتي أدَّيتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة» فأرى مولانا القائم صاحب الزَّمان ـ صلوات الله عليه ـ واقفاً بباب الكعبة ، فأدنومنه على شغل قلب وتقسّم فكر ، فعلم عليه السلام ما في نفسي بتفرسُّه في وجهي ، فسلّمت عليه فردَّ عليَّ السّلام ، ثمَّ قال لي : لِمَ لا تصنّف كتاباً في الغيبة حتّى تكفي ما قد همَّك ؟ فقلت له : يا ابن رسول الله قد صنّفت في الغيبة أشياء ، فقال عليه السلام : ليس على ذلك السّبيل آمرك أن تصنّف [ولكن صنّف] الآن كتاباً في الغيبة واذكر فيه غيبات الأنبياء عليهم السلام .

ثمَّ مضى صلوات الله عليه ، فانتبهت فزعاً إلى الدُّعاء والبكاء والبثِّ

والشكوى إلى وقت طلوع الفجر ، فلمّا أصبحت ابتدأت في تأليف هذا الكتاب ممتثلاً لأمر ولي الله وحجّته ، مستعيناً بالله ومتوكّلاً عليه ومستغفراً من التقصير ، وما توفيقي إلّا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب .

الخليفة قبل الخليقة[1] :

أما بعد فإنّ الله تبارك وتعالى يقول في محكم كتابه : ﴿**وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة** ـ الآية﴾[2] فبدأ عزَّ وجلَّ بالخليفة قبل الخليقة ، فدلَّ ذلك على أنَّ الحكمة في الخليفة أبلغ من الحكمة في الخليقة ، فلذلك ابتدأ به ولأنّه سبحانه حكيم ، والحكيم من يبدأ بالأهمِّ دون الأعمِّ ، وذلك تصديق قول الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام حيث يقول : «الحجّة قبل الخلق ، ومع الخلق ، وبعد الخلق» ولو خلق الله عزَّ وجلَّ الخليقة خلواً من الخليفة لكان قد عرضهم للتّلف ، ولم يردع السّفيه عن سفهه بالنوع الّذي توجب حكمته من إقامة الحدود وتقويم المفسد . واللحظة الواحدة لا تسوِّغ الحكمة ضرب صفح عنها ، إنَّ الحكمة تعمُّ كما أنَّ الطاعة تعمُّ ، ومن زعم أنَّ الدُّنيا تخلو ساعة من إمام لزمه أن يصحّح مذهب البراهمة في إبطالهم الرِّسالة ، ولولا أنَّ القرآن نزل بأنَّ محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم خاتم الأنبياء لوجب كون رسول الله في كلِّ وقت ، فلمّا صحَّ ذلك لارتفع معنى كون الرَّسول بعده وبقيت الصّورة المستدعية للخليفة في العقل ، وذلك أنَّ الله تقدَّس ذكره لا يدعو إلى سبب إلّا بعد أن يصوِّر في العقول حقائقه ، وإذا لم يصوِّر ذلك لم تتّسق الدَّعوة ولم تثبت الحجّة ، وذلك أنَّ الأشياء تألف أشكالها ، وتنبو عن أضدادها . فلو كان في العقل إنكار الرُّسل لما بعث الله عزَّ وجلَّ نبيّاً قطُّ .

مثال ذلك الطبيب يعالج المريض بما يوافق طباعه ، ولو عالجه بدواء يخالف طباعه أدّى ذلك إلى تلفه ، فثبت أنَّ الله أحكم الحاكمين لا يدعو إلى سبب إلّا وله في العقول صورة ثابتة ، وبالخليفة يستدلُّ على المستخلف كما

---

(١) هذا العنوان وجميع العناوين التي جاءت في هذه المقدمة ليست من المؤلف بل موجودة في طبعة علي أكبر الغفاري المطبوعة بطهران .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٣٠ .

وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾[١] فأمر الإمامة من تمام الدِّين ، ولم يمض عليه السلام حتّى بيّن لأمّته معالم دينهم وأوضح لهم سبيلهم ، وتركهم على قصد الحقّ ، وأقام لهم عليّاً عليه السلام عَلماً وإماماً ، وما ترك شيئاً تحتاج إليه الأُمَّة إلّا بيّنه ، فمن زعم أنَّ الله عزَّ وجلّ لم يكمل دينه فقد ردَّ كتاب الله العزيز ومن ردَّ كتاب الله [عزَّ وجلّ] فهو كافر ، هل تعرفون قدر الإمامة ومحلّها من الأمّة فيجوز فيها اختيارهم ؟ .

إنَّ الإمامة أجلُّ وأعظم شأناً وأعلى مكاناً وأمنع جانباً ، وأبعد غوراً من أن يبلغها النّاس بعقولهم ، أو ينالوها بآرائهم ، أو يقيموا إماماً باختيارهم ، إنَّ الإمامة خصَّ الله عزَّ وجلَّ بها إبراهيم الخليل عليه السلام بعد النبوّة والخلّة مرتبة ثالثة ، وفضيلة شرَّفه بها وأشاد بها ذكره[٢] فقال عزَّ وجلّ : **﴿إنّي جاعلك للنّاس إماماً﴾**[٣] فقال الخليل عليه السلام سروراً بها : **ومن ذرِّيّتي ؟ قال الله تبارك** وتعالىٰ : **﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾** فأبطلت هذه الآية إمامة كلّ ظالم إلى يوم القيامة ، وصارت في الصفوة ، ثمَّ أكرمها الله عزَّ وجلّ بأن جعلها في ذرِّيّته أهلِ الصفوة والطهارة ، فقال عزَّ وجلّ : **﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين * وجعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلوٰة وإيتاء الزّكوٰة وكانوا لنا عابدين﴾**[٤] .

فلم يزل في ذرِّيّته يرثها بعض عن بعض قرناً فقرناً حتّى ورثها النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال الله عزَّ وجلّ : **﴿إنَّ أولى النَّاس بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهذا النبيُّ والّذين آمنوا والله وليُّ المؤمنين﴾**[٥] ، فكانت له خاصّة فقلّدها صلى الله عليه وآله وسلم عليّاً عليه السلام بأمر الله عزَّ وجلّ على رسم ما فرضها الله عزَّ وجلّ فصارت في ذرِّيّته الأصفياء الّذين آتاهم الله العلم والإيمان لقوله عزَّ وجلّ : **﴿وقال الّذين أُوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث [ولكنّكم كنتم**

---

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ٥ .

(٢) الإشادة : رفع الصوت بالشيء .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ١٢٤ .

(٤) سورة الأنبياء ؛ الآيتان : ٧٣ و ٧٤ .

(٥) سورة آل عمران ؛ الآية : ٦٨ .

لا تعلمون]﴾[١] فهي في ولد عليٍّ عليه السلام خاصّة إلى يوم القيامة إذ لا نبيَّ بعد محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فمن أين يختار هؤلاء الجهّال .

إنَّ الإمامة هي منزلة الأنبياء وإرث الأوصياء ، إنَّ الإمامة خلافة الله تعالىٰ وخلافة الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ومقام أمير المؤمنين ، وميراث الحسن والحسين عليهما السلام .

إنَّ الإمامة زمام الدِّين ، ونظام المسلمين ، وصلاح الدُّنيا وعزُّ المؤمنين ، إنَّ الإمامة أُسُّ الإسلام النامي ، وفرعه السامي ، بالإمام تمام الصلاة والزَّكاة والصيام والحجِّ والجهاد وتوفير الفيء والصدقات ، وإمضاء الحدود والأحكام ، ومنع الثغور والأطراف .

الإمام : يحلُّ حلال الله ، ويحرِّم حرام الله ، ويقيم حدود الله ، ويذبُّ عن دين الله ، ويدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجّة البالغة ، الإمام كالشمس الطالعة للعالم وهي في الأفق بحيث لا تنالها الأيدي والأبصار .

الإمام : البدر المنير ، والسراج الزَّاهر ، والنور الساطع ، والنجم الهادي في غياهب الدجى[٢] ، والبلد القفار[٣] ، ولجج البحار .

الإمام : الماء العذب على الظماء ، والدَّالُّ على الهدى ، والمنجي من الرَّدى ، الإمام : النَّار على اليفاع ، الحارُّ لمن اصطلى به[٤] والدَّليل في المهالك من فارقه فهالك .

الإمام : السحاب الماطر ، والغيث الهاطل[٥] ، والشمس المضيئة ، والسماء الظليلة ، والأرض البسيطة ، والعين الغزيرة . والغدير والرَّوضة .

---

(١) سورة الروم ؛ الاية : ٥٦ .

(٢) الغيهب : الظلمة وشدة السواد ، والدجى : الظلام .

(٣) القفر من الأرض : المفازة التي لا ماء فيها ولا نبات .

(٤) اليفاع : ما ارتفع من الأرض .

(٥) الهاطل المطر المتتابع المتفرق العظيم القطر .